كتاب نزهة العيون

في اربعة فنون

في المكتبة المورانية الشهيرة بحلب — كتاب مخطوط بقلم نسخي قديم يعد نحو خمسمائة صفحة افتتحه مؤلفه بقوله بعد البسملة « الحمد لله الذي بقدرته رفع منصوب الطباق السبع ، وبث فيها زينة لها نجوماً هداية للساري ورجوماً لمسترقي السمع ، وانشأ في جوها سحاباً تلقحه الرياح فيدر خلفه بالهمع » الى آخر خطبته الطويلة التي لم يذكر فيها مؤلفه اسمه ولا اسم كتابه والكتاب مخروم الآخر الذي ربما كان في خاتمته اشارة الى مؤلفه او الى تاريخ الفراغ من تأليفه او الى اسم ناسخه ، وقد سألت احد اساتذة التاريخ عن اسم هذا الكتاب وعن مؤلفه فقال اسمه (نزهة العيون في اربعة فنون) وان مؤلفه ابن الوطواط المتوفى سنة ٧١٩ هـ — ١٣١٦ م : ثم تصفحت الكتاب فرأيت في قفا اول صفحة منه بخط غير خطه — هذه العبارة « كتاب نزهة العيون في اربعة فنون » تأليف الشيخ جمال الدين ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن محيي الدين الكتبي .

بحثت عن هذا الكتاب في كشف الظنون وفهارس مكتبتي بايزيد ولالا ومكتبة شيخ الاسلام في استانبول وفهارس المكتبة الخديوية في مصر وفهارس مكتبة بلدية اسكندرية — فلم ار له فيها ذكراً ، والذي يظهر لي ان هذا الكتاب مما أُلف قبل القرن الثامن للهجرة لانه لم يرد فيه حين تقسيمه الارض الى أقاليم — ذكر لقارة اميركا التي كان اكتشافها سنة ٨٦٢ هـ — ١٤٥٧ م .

بعد ان فرغ مؤلفه من خطبة كتابه أورد فهرسه فقال :

الفن الاول في السماء وزينتها :

الباب الاول في ذكر مبدإ خلق السماء وهيأتها

« الثاني « « الكواكب السيارة

« الثالث « « « الثابتة وما رصده القدماء منها

« الرابع « « منازل القمر وما قيل فيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الباب الخامس في ذكر الآثار العلوية
« السادس « « الليالي والايام
« السابع « « الشهور والاعوام
« الثامن « « فصول السنة
« التاسع « « الامم واعيادها

الفن الثاني في الارض وما يتعلق بها وفيه تسعة ابواب :

الباب الاول في ذكر مبدإ خلق الارض وهيأتها
« الثاني « « الجبال والمعادن
« الثالث « « البحار والمعادن
« الرابع « « العيون والانهار
« الخامس « « اسباب من سكن الارض
« السادس « « البلاد ونواحيها وما ملك المسلمون منها وذلك بما ورآء نهر جيحون
« السابع « « طبائع البلاد واخلاق من سكنها من العباد
« الثامن « « المباني التي بقي أثرها ووعظ خبرها أولها برج بابل
« التاسع « « ماوصفت به المعاقل والحصون والمنازل · اولها قلعة في الاندلس

الفن الثالث في الحيوان وطباعه :

الباب الاول في ذكر خصائص نوع الانسان
« الثاني « « طبائع ذي الناب والظفر
« الثالث « « « الحيوان الوحشي
« الرابع « « « « الاهلي
« الخامس « « « الحشرات والهوام
« السادس « « « سباع الطير وكلابها
« السابع « « بغاث الطير
« الثامن « « طبائع الطائر الليلي
« التاسع « « الحيوان البحري المشتركة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفن الرابع في النبات وفلاحته :

الباب الاول في كيفية كون النبات وتلوينه

« الثاني في ذكر ما يوافق النبات وتركيبه من الأرضين والسرجين

« الثالث في فلاحة الحبوب والقطاني

« الرابع في فلاحة البقول

« الخامس في ذكر النبات الذي لثمره وقشر

« السادس في ذكر النبات ذي النوى

« السابع في ذكر فلاحة النبات الذي لا قشر له

« الثامن في ذكر أصناف الرياحين

« التاسع في ذكر الاشجار ذوات الصموغ والامنان واليتوعات

ثم قسم المؤلف كل باب من هذه الابواب المندرجة تحت فنهـا — الى عدة فصول خص كل نوع من الاصناف المندرجة ضمن الباب — بفصل على حدته تكلم فيـه على ذلك النوع بما يقتضيه الفن ثم اتى بشيء من طرائف المنظوم فوصف به النوع وصفاً ادبياً يحتاجه الاديب وقلما يجده في غير هذا الكتاب وقد اكثر المؤلف في الفن الرابع النقل عن ابي بكر بن وحشية كقوله في فصل من فصول الباب الاول من هذا الفن — قال ابن وحشية : واصل كون الألوان في النبات هو اسخان الشمس ثم طلوع القمر عليه فتتغير الالوان وتتبدل فيه فان ثمرة النخل تبدو اولاً بيضاء جفرية ثم تصير بلحاً ثم تكبر فتنتقل من الخضرة الى الحمرة او الى الصفرة وهذا التبدل والتلون انما هو بطبخ الشمس له وكل نوع من النبات فحكمه في الألوان والتنقل فيها هذا الحكم فان الشمس تطبخه والقمر يصبغه والماء يرويه والارض تمسكه وتغذوه مع الماء فيتم كونه ثم قال بعـد كلام طويل اعلم ان جوهر النبات كله كبيره وصغيره انما يكون من جوهر العناصر وهذه العناصر اصل ومادة وموضوع لكل جسم مركب كائن على الارض من حد سفل أسفل فلك القمر الى آخر جسم الارض . وقال في موضوع آخر في قوى النبات ومضارعته الحيوان : قال أرسطو الحياة موجودة في النبات كما هي موجودة في الحيوان غير ان حيوة الحيوان بينة ظاهرة وحياة النبات خفية غامضة وله حس وحركة . وقال في موضع آخر زعم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آخرون ان للنبات نوماً ويقظة وان النوم سكون والسكون راحة المتحرك وليس للنبات إرادة إذ لو كانت لكان يمكنه ان يهرب من ضار . وزعم آخرون ان له حساً وارادة لما يرى فيه من الميل مع الشمس حيث مالت كالشقائق والخبازي والحور والترمس وما يفتح لطلوعها وينضم لمغيبها كالنيلوفر والاذرون . وزعم آخرون ان له مع الحس عقلاً وفهماً .

الى غير ذلك من القضايا الفلسفية المتعلقة بالنبات وأحواله وطبائعه وتطوراته مما يزعم اكتشافه وظهوره على يده كثير من علماء النبات في هذا القرن .

على ان مؤلف هذا الكتاب كما عني بذكر الوافر الجم من المسائل الجوهرية الحقيقية المتعلقة بالنبات وغيره فانه لم يقصر بايراد قضايا جديرة ان تخرط في سلك الخرافيات التي تستبعد العقول وقوعها من ذلك قوله مؤيداً زعم من قال بوجود الحس لبعض النباتات ومما يخيل للذهن صدق ما زعموه ما حكى لي القاضي فخر الدين ابراهيم بن علي دبوقا قال مررت بقرية من قرى بعلبك تسمى الرمانة فرأيت في بقعة من ارضها نباتاً يشبه المنثور في لونه وكونه فوقفت متعجباً من حسنه فقال لي بعض الظرفاء وأز يدك منه عجباً قلت وما هو قال يغني بيتي شعر معروفين فلا يزال يهتز حتى تسقط أوراقه وتذبل واريك ذلك ثم اندفع يغني و يوقع بكفيه :

يا ساكناً بالبلد البلقع ويا ديار الظاعنين اسمعي
ما هذه داري ولكنها ديار احبابي فنوحي معي

قال فخر الدين فوالله لقد رأيت ذلك النبات يهتز كأنما أصابته ريح عاصفة حتى تناثرت اوراقه وذبلت طاقاته

قلت لا اميء الظن بفخر الدين ولا اتهمه بالكذب والحنث بيمينه بل اقول انه غلب عليه الوهم فرأى بعينه النبات يهتز فأخبر بذلك ولم يحنث .

هذا وان صاحب الكتاب الذي نحن بصدده ذكر في كتابه في الكلام على الارض اموراً ينطبق بعضها تمام الانطباق على ماقاله فيها علماء الهيئة في القرن العشرين والذي قبله وكنا نظنها انها من مكتشفاتهم ومبتكراتهم التي لم يسبقهم اليها احد قبلهم ، واليك نبذة مما قاله في هذا الموضوع وهي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من جملة الزعوم ان الارض تهوي الى ما لانهاية له وان السماء ترتفع الى ما لا نهاية له ، ومنهم من زعم ان الارض صاعدة وان السماء هابطة ومنهم من قال ان الارض والسماء صاعدتان والقائلون بهذا منهم من زعم ان السماء صاعدة مع دورانها والارض صاعدة غير دائرة ومنهم من زعم عكس ذلك ومنهم من زعم انها متحركة على استقامة الى الشرق وقال بعضهم انها متحركة دورية وان الذي يرى من دور الفلك انما هو من دورها وان الفلك ساكن على الدوام والقائلون بهذا ذهب فريق منهم الى ان حركتها مستديرة .

وكل من مال الى فن من هذه الفنون فانما يخبط فكره في عشواء الظنون و يتكلف لكل منها ادلة و براهين تنقض عليها من سوانح المنازعات صقور وشواهين .

والقول الحق الذي تقوم عليه البراهين الساطعة والحجج القاطعة عند حذاق المتكلمين في الهيئة انها كرية بالكلية مضرسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة ولا يخرجها ذلك عن الكرية لان مقادير الجبال وان شمخت صغيرة بالقياس الى كل الارض « كرة قطرها ذراع او ذراعان اذا نبأ فيها كالجاورس وغار فيها كامثاله لم يمنع ذلك من اجراء حكم التدوير عليها بالتقريب » وليس للارض نسبة من الفلك البتة لان أصغر كوكب في السماء قدرها ثمان عشرة مرة وهي في وسط الفلك والوسط هو السفل ومثلوا كونها في الوسط كالنقطة في الدائرة والمح في البيضة ومعنى تمثيلهم لها بالمح الذي هو الصفار ان البيضة يقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها والمح في مكانه لا ينتقل عنه وفي هذا تنبيه على ان الفلك هو المتحرك دون الارض وزعموا انها الحجاب الذي توارت به الشمس في قوله تعالى « حتى توارت بالحجاب » ومن براهينهم على انها كرية ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع نواحي الارض في وقت واحد لا يرى طلوعها على النواحي الشرقية قبل طلوعها على النواحي الغربية وغيبوبتها من النواحي الشرقية قبل غيبوبتها عن الغربية ، ولو ان انساناً سار من ناحية الجنوب الى ناحية الشمال رأى انه يظهر له من الناحية الشمالية بعض الكواكب التي كان لها غروب فيصير ابدي الظهور ، و بحسب ذلك يكون عنده من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها الطلوع فيصير أبدي الخفاء على ترتيب واحد اذ كان لا يعترض بينه وبين البصر شيء يحجب شعاعه عنه والامر بخلاف ذلك كما تقدم ، قال والماء محيط بها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولولا التضرس لغمرها حتى لم يظهر منها شيء لكن العناية الالآهية اقتضت اللطف بالعالم الانسي فأبرزت له جزءاً من الماء ليكون مركزاً له وإحاطة الماء بهـا بالامر الطبيعي اذ كل خفيف يعلو على الثقيل والماء أخف من الارض فكان محيطاً بهـا قالوا والهواء جاذب لها الى الملك بالسوية كجذب المغنطيس للحديد ولذلك وقفت في الوسط : وذهب آخرون الى ان وقوفها في الوسط انما هو من دفع الفلك لها من سائر جهاتها ومثلوا وقوفها في الوسط بحمصة لو وضعت في قنينة ثم أديرت في الجهة ادارة سريعة ووقفت في وسطها لتساوي الدفع من كل الجوانب : وحكى عن آخرين ان النصف الأسفل من الارض فيه اعتمادات صاعدة والنصف الاعلى فيه اعتمادات هابطة فحصل التدافع من الاعتمادات فلزم الوقوف .

كل خبط في عشواء الجهل بحكمة الله في مخلوقاته ، كيف والله تعالى يقول : « ان الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده » وذلك الامساك هو ان رسم لكل واحد منها حداً لا يتعداه : ثم انهم مثلوا طول الساكن في الارض بتفاحة غرس فيها شعير مما يدور بها فكل شعيرة منتصبة الى ما قابلها من جميع جهاتها لا فرق بين شيء منها في استقامة المحل وحيث كان الناس من استيطانهم فان ارجلهم الى الارض ورؤوسهم الى السماء وكل فريق منهم يرى ان ارضه التي هو عليها هي المستقيمة في الاعتدال ، وقال آخرون في تحقيق هذه الدعوى — لو ان اهل ناحية من نواحي الارض حفروا بئراً وأطالوها الى المركز وحفر اهل الناحية التي تقابلها بئراً أخرى وأطالوها الى ان تلتقي الحفرتان و يكون الماء واحداً لأرسل اهل كل ناحية دلوهم فكان أسفل هذا الدلو مقابلاً لأسفل الدلو الآخر وكان هؤلاء يجرونه الى فوق والآخرون كذلك لا يشك واحد منهم انه جاذب دلوه من اسفلهـا الى اعلاها واستدل ايضاً على ذلك ان الانسان اذا كان في موضع من الارض وأخرج خطاً مستقيماً من مكانه الى مركز الارض وانتهى به الى الجهة الاخرى من رجليه الى رجليه حتى انهم قالوا متى قيس بين اهل الصين وبين اهل الاندلس الذين على طرف المعمور كانت أقدامهم متقابلة .

الى آخر ما حكاه صاحب الكتاب في كرية الارض وحركاتها من الزعوم والآراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي كنا نحسب الكثير منها مما تركه الاول للآخر فكنا نقول كم ترك الاول للآخر فصرنا بعد اطلاعنا على هذا الكتاب نقول ما ترك الاول للآخر .

كامل الغزي
عضو المجمع العلمي